

الضمير

سنكا وابن المقفع وما كتبا في الضمير ومحاسبة النفس

بقلم الاستاذ محمد مهدي علام

استاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

تمهيد:

أتينا فيما سبق على معنى الضمير ، ونشأته ، ومراحله ، وسلطانه ، وعلى الندم والتوبة ، وعلى عوائق الضمير ^(١) . وزيد أن نبين هنا ما كتبه كل من سنكا خطيب الرومان ، وابن المقفع فيلسوف العرب ، عن الضمير . وإنما اخترنا الجمع بين هذين الحكيمين لعلاقة قوية بين رأييهما ، حتى ليخيل إلينا أن ابن المقفع قد تأثر بمقالة سنكا ، فيما تأثر به من فلسفة الرومان القديمة .

سنكا ، Seneca . (٣ ق . م - ٦٥ م)

هو فيلسوف أسباني المولد ، روماني المربي ، أظهر ذكاءً خارقاً منذ صغره ، وترقى على أبدي طائفة من أمهر الأساتذة ، ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ؛ واشتغل بالقانون . ثم عهد إليه بتربية المعامل العمانية نيرون ، ولقد أظهر سنكا من الضعف في تنقيف هذا الطاغية الناشئ ما كان له أسوأ الأثر في حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل في حياة الأمة الرومانية نفسها . ولقد اتخذ نيرون مستشاراً له بعد جلوسه على العرش ، فكان له أملوح من بنائه في كتابة الفتاوى التي تبرر أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . ولم يلبث نيرون أن قلب لمستشاره ظهر الجن ، فنجاه عن منصبه أولاً ، ثم بث إليه عن قتله أبعق قتلة .
مقالته في الضمير ^(٢) :

الضمير الحى شهادة بالحياة الفاضلة ، وهو جزاؤها ، وهو الذى يحصن العقل من الخطر حينما يسيطر المرء على عواطفه ، ويتعود الرضا بحالته ، ويعلم أن الموت ليس ثمراً في ذاته ، وإنما هو نهاية الحياة .

إن لكل إنسان في قرارة نفسه قاضياً وشهوداً على كل ما يعمل من خير أو شر ؛ وهؤلاء يروحون إلينا أفكاراً طالية ، ويبدلون لنا نصائح عالية . إن الرجل الذى لا يكثر بالخوف ،

(١) راجع الجزأين الأول والثانى من السنة الثانية لجملة (المعرفة) شهرى - ابريل ويونيو سنة ١٩٣٣

(٢) تقلا عن كتاب (The morals of Seneca)

ولا ينعفس في الشهوات ، ولا تكثرته الكوارث ، ولا تهيجه العواصف ، بل هو يتسم لكل شيء من الأشياء التي يتشوف الناس إليها أو يتهيبونها — مثل هذا الرجل لا يسعنا جميعاً إلا أن نعترف بأن في نفسه شعاعاً إلهياً يضيء نواحيها . إن العقل العظيم ، الخبير ، الحق ، ليس إلا نوعاً من الأسرار الإلهية التي أودعها الله صورة اللحم والدم

إن كل ما تعلمه من خير أو شر داخل في مملكة العقل ، وإن الضمير النقي يمنحنا حالة هادئة لا يعكر صفوها . إن ضمير كل إنسان هو قاضيه ، فهو الذي يقضى له أو عليه ، على شرط أن تفرق بين الضمير والهوى . إن دهاء الناس يرون العقامة والشرف في مقدم وفاتهم ، فإذا رأوا رجلاً متواضعاً دمته الأخلاق قلوا إنه مخنث لا رأى له ، ولكنهم إذا لاحظوا عظمة عقله الممتلئة في أعماله المتناسقة التي لا تضارب فيها ، وأدركوا أن سلمه الظاهري مؤسس على ملائمة داخلية ، لم يسعهم إلا احترامه والاعجاب به ، فإنه ليس في الوجود شخص لا يرضى عن التفضيلة ، وإن كان قليل من الناس من يتبعونها . نحن نرى التفضيلة وليكننا لا نخرؤ على التقدم إليها ، والسبب في ذلك أننا نتقال في تقدير ما يلزمنا أن نضحى به للوصول إلى التفضيلة .

إن الضمير الحى لا يخشى شهوداً ، أما الضمير المنقلب فلىء بالتوسل حتى في ساعة العزلة . إذا نحن لم نعمل إلا ما هو شريف فلتعلم الدنيا جميعها أننا نعمله ، وإذا ارتكبنا ما هو فيجح فإذا يفتنينا أنه لم يعلم به أحد ، ما دمنا نحن نعلم أننا قد ائترفناه ؟ ما أشقى ذلك الرجل الذي يفض من شأن هذا الشاهد ! إن من المعترف به أن الرذيلة قد تنجو من العقوبة (عقوبة القانون) ، ولكن لا خلاص لها من يد الضمير (١) فإن حكم الادانة المستر هو أول عقوبة للمجرم ، وأنسى عقوبة ، حتى إن الخبيثة لتردى نفسها ، وإن خوف الانتقام ليقض المضاجع ، حتى مضاجع أولئك الذين نجوا من وخز الضمير .

ولقد كان يكون محزوناً أن يجد الظلم لنفسه نجاة من القانون ، والقاضى ، والقصاص ، لو لم تكن الفطرة قد زودت ضمير المجرمين بأنواع من العذاب والآلام ، فالمجرم يعيش في ذعر دائم ، وهو في ترقبه أن ينزل به العقاب ، يلاق أشد عقاب ، وكل من استحق عتاباً ترقبه .

وماذا يحدث لو لم تنكشف جرمته ؟ إنه يعاني آلام احتمال كشفها ؛ فبيناه لا تدو قن النوم إلا غراراً ، لأن الألم يقض مضجعه ، حتى النوم لا يستر جرمته عن نفسه ؛ ثم - ولا يستطيع أن يتحدث عن جرائم الناس من غير أن يذكر جرمته ، في حين أن الضمير النقي يتعمق أبدأ في وليمة دائمة . وليس في مباحج الحياة الدنيا إلا ما هو ناشئ عن ضمير تسيطر على حياة طيبة

(١) من شاء التوسع في بحث هذه النقطة فليرجع إلى كتابنا «فلسفة العقوبة» ص ٢٨٨، ٢٩٠

أعمالها ؛ وليس يعنيننا من الصخب والجلبة ما قد يحيط بنا مادامنا نحس بهدوء وامتنان
في قرارة أنفسنا ، أما إذا كانت عواملنا طاغية معتمدية ففى ذلك ما يكفى لتأريقتنا ، حتى
لو كانت الدنيا حولنا هادئة ساكنة ، ألا إنه ليس الجسم المستريح ، ولا الفراش الوثير ،
هو الذى يمنح الراحة عقلاً تلقاً

فالسعادة الحققة ليست في إدمان الحر ، ولا في القناطرير المقتطارة من الذهب والفضة ،
فالحظ يستطيع أن يمنحني باليمين ما يساب باليسار ، وما دام ما بيدي لا ينمو ويزيد لي ، فما
أسهل أن أفارقه من غير ألم . (١)

إن من يريد أن يفهم نفسه فهما حقاً ، يجب أن يدع جانباً أهواله ، وحظوظه ، وكبرياهه ،
وليفحص نفسه عارية عن كل ذلك ، غير معتمد في فهم نفسه على ما يخبره به الناس .
ليحاسب كل إنسان نفسه :

إن من الخطأرة أن يسارع المرء إلى اعتقاد أنه فاضل ، فلنختبر فطربنا ، ولننظر إليها نظر
لخص وتمحيص ، ولنلاحظها ، ولنفتشها ، فإن المرء أعظم الناس مدحاً وإمراء لنفسه . إن
علينا أن نطلب من أنفسنا حساباً في كل ليلة : لماذا كنت اليوم ؟ أى عاتقة عارضت اليوم ؟
أى إغراء وقتنة قاومت اليوم ؟ أى فضيلة كسبت اليوم ؟

إن ردائلنا لتتضامل إذا هي وقت في كل يوم على منصة الاعتراف . فما أهدأ النوم الذى
يتلو مثل هذه المعركة ! يالها من سكونية ، وحرية ، وعظمة لتلك العقل الذى يتجسس على
نفسه ، ويقوم من نفسه رقيباً على أعماله وتصرفاته إن من عادتي في كل ليلة ألا تنطقني
الشعنة حتى أستعيد كل ما صدر مني في خلال اليوم المنصرم من كلمات وأفعال ، من غير أن
أسمح لأمر ما بالافلات من هذا الحساب . ولماذا أخشى شبح أخطائي ما دمت أستطيع أن
أؤنب نفسي وأصفح عنها ؟ (٢) إني أقول لنفسي : لقد كنت مغالياً بعض المغالاة في ذلك
الجدل ، ولقد كان من الممكن أن أوفر على نفسي الادلاء برأبي هذا ، فقد أساء إذ أعلن ، ولم
يعقب خيراً مطلقاً . نعم لقد كان الأمر حقاً ، ولكن ما كل حق يقال دائماً . إني أتمنى لو أنني
كنت قد أمسكت على لساني ، فانه ليس من الصواب أن تجادل المغفلين أو الرؤساء ؛ لقد

(١) وازن بين هذا وقول ابن المقفع « وعلى العاقل ألا يحزن على شيء فانه من الدنيا
أو نولي ، وأن يزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من
ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب ؛ ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ، ولا يبلعن ذلك
سكرأ ولا طغياناً . فان مع السكر النسيان ، ومع الطغيان التهاون . ومن نسي وتهاون خسره .
(الأدب الصغير ص ١٩ طبعة مدرسة مجده على الصناعية)

(٢) إن الناظر إلى حياة سنكا يظهر له أنه كان يصنع عن نفسه أكثر مما كان يفنى

أخلاقاً ، ولسكنى لن أعود إلى ذلك الخلقاً .

ولو أن كل رجل نظر في نفسه هذه النظرة لكان هذا خيراً لنا جميعاً . (١) وهل هناك ما هو أكثر انطباقاً على العقل من هذه المراجعة اليومية لحياة لا نملك امتدادها لحفلة واحدة ؟ إن قدرنا مقدور ، وإن أول نفس تنفسه في الحياة لأول حركة في طريقنا إلى نهايتها . (٢) إن حياتنا لتختلف صورها اختلافاً عظيماً ، ولكنها كلها تنتهي بخاتمة واحدة . لقد خلقنا لتنفد ولنبي ، لنأمل ولتخاف ، لتضيق أنفسنا ولتضيق غيرنا ، وليس نعمة بلسم يشفي من هذه العاجمة العامة إلا الفضيلة ، إذ إن أساس النعيم الحق إنما هو في الصبر (٣) .

محمد مهدي علام

(١) وازن بين الفقرات الأخيرة هنا وبين قول ابن المنفع « وعلى العاقل خصاصة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والانتابة ، والتنكيل بها . أما الحاسبة فيحاسبها بما لها ، فانه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق . فينتبه لهذه الحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا اقضى ، واليوم إذا ولى . فينظر فيما أنسى من ذلك ، وما كسب لنفسه ، وما اكتسب عليها ، في أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء ، وجد ، وتذكير للأمر ، وتبكيك للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعترف وتذعن . وأما الخصومة فإن من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعى المماذير قبيهاً ، والأمانى قبيهاً ، فبرد عليها مآذيرها وعلها وشبهاتها . وأما القضاء فانه يحكم فيها أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة سرديّة ، موبقة ، وللحسنة بأنها زائنة ، منجية ، سرحة . وأما الانتابة والتنكيل فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ورجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتذكر لاسيئات ، والتبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها . فأفضل ذوى الألباب أمدهم لنفسه بهذا أخذاً ، وأقلهم عنها فيه فترة . (الأدب الصغير ص ١٦)

(٢) هذا معنى دقيق ، وقد تناوله السيد توفيق البكري فأبدع فيه بما لم يترك حاجة لمستزيد إذ يقول :

وما أذن القوم لما أقاموا صلاة الجنائز يوم الوفاة

وأذن للعقل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة

(٣) وازن بين هذا وقول ابن المنفع : « وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مراراً ، ذكر آيات الله به القلوب ، ويقدم الطلح ، فإن في كثرة ذكر الموت عصمة من الأثر ، وأماناً باذن الله من الهلع . وعلى العاقل أن يحصى على نفسه مساوئها في الدين ، وفي الأخلاق ، وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ، ثم يذكر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفاً ، من إصلاح ، خلة ، والخلتين ، والخلال ، في يوم أو الجمعة ، أو الشهر . فكلما أصلح شيئاً معاه ، وكلما نظر إلى نحو استبشر ، وكلما نظر إلى ثابت الكتاب .» (الأدب الصغير ص ١٧)